الحياة الطيّبة
السنة 23
العدد 40
شتاء 2019م

معالم الخطاب السياسيّ لأنصار الإمام الحُسَيْن عليه السلام -دراسة تحليليّة-

السيّد علي عباس الموسويّ[1]

خلاصة المقالة:

تتجلّى بعض العناصر المميِّزة للثورة الحسينيّة في أحد مظاهرها بالأنصار، فهم في الثبات ووضوح الرؤية والنضج في التعامل مع الأحداث؛ على حدٍّ يستدعي التوقّف مليّاً عند مواقفهم، وقد التفت إلى ذلك كثير من الباحثين، ولكنّ هذه المقالة تتوخّى دراسة جانب مهمّ من هذه المواقف، وهو ما يتعلّق بمعالم الخطاب السياسيّ لهؤلاء الأنصار من خلال تتبُّع كلماتهم التي نطقوا بها في مسيرتهم مع إمام زمانهم وجهادهم بين يديه، وذلك من خلال النقاط التالية:

- النقطة الأولى: إطلالة على أنصار الإمام الحسين عليه السلام؛ أي من هم الأنصار؟ وكيف تشكَّلت هذه الجماعة؟

- النقطة الثانية: أنحاء الخطاب السياسيّ لأنصار الإمام الحسين عليه السلام التي تنوّعت بين الخطب والرسائل والحوارات والأراجيز.

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، وعضو الهيئة العلميّة في جامعة المصطفى ﷺ العالميّة، ورئيس تحرير مجلة المنهاج، من لبنان.

- النقطة الثالثة: معالم الخطاب السياسيّ لأنصار الإمام الحسين عليه السلام؛ من امتثال تكليف الأمر بالمعروف والنّهي، والإيمان بالإمامة الحقّة، وحفظ ذريَّة النبيّ صلى الله عليه وآله، وأداء حقّ الإمامة، ومواجهة الضَّيم والظُّلم، والوفاء بالعهود والمواثيق، واتِّباع الحُجَّة والدَّليل، والبُعد الأخرويّ للنصرة، والمحافظة على مبدأ الأُخوَّة في الدِّين ما لم يقع الدَّم، وخصوصيّة الشِّعار السياسيّ المنبثق من ثورة الإمام الحسين عليه السلام ومبادئها وقيمها.

كلمات مفتاحيّة:

الإسلام، الإمامة، الإمام الحسين عليه السلام، الأنصار، السياسة، الخطب، الرسائل، الحوارات، الأراجيز، الشعارات.

مقدّمة:

تنوّعت الدراسات التي تتناول حادثة عاشوراء، فعالميّة الحدث، وامتداداته التاريخيّة، وما حمله من خصوصيّات الأشخاص، وفجاعة المقتل، وما أعقبه من سبي للنساء؛ وهنّ أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله؛ جعل الواقعة تتجاوز كلّ تضييق قد يحاول بعضهم أن يفرضه عليها، ولا شكّ في أنّ خلود الحادثة بنظرٍ منصفٍ يرتبط بأبعاد تبدأ بعالم الغيب، وتنتهي بعوالم المادّة. وما دام العجز واقعاً بالفعل عن معالجة أبعاد الحادثة العاشورائيّة في عناصرها المادّيّة ومكوّناتها التاريخيّة؛ فإنّ العجز أَبين في عناصر الغيب المتّصلة بها، وإنْ أصاب الشطط بعضاً، فنفى الغيبيّات عن الحادثة؛ لقصر نظر، أو بُعدٍ عن التعمّق، أو مكابرة عن التسليم.

فالظاهرة الحسينيّة ظاهرةٌ امتازت بفرادة خاصّةٍ ميَّزتها عن سائر الظواهر الثوريَّة التي مرّت في التاريخ الإسلامي، منْ دون أنْ نُغفل دور أمورٍ أخرى ساعدت في إضفاء طابع الفرادة عليها؛ كالمراسم الخاصّة التي اختصَّت بها هذه الظاهرة، فكان لها الدَّور الكبير في حفظها حيَّةً على مرِّ السنين.

وتتجلّى بعض العناصر المميِّزة للثورة الحسينيّة في أحد مظاهرها بالأنصار، فهم في الثبات ووضوح الرؤية والنضج في التعامل مع الأحداث؛ على حدٍّ يستدعي التوقّف مليّاً، وقد فعل ذلك كثير من الباحثين، ولكنّنا سوف نسعى في هذه المقالة إلى دراسة معالم الخطاب السياسيّ لهؤلاء الأنصار من خلال تتبُّع كلماتهم التي نطقوا بها في مسيرتهم مع إمام زمانهم وجهادهم بين يديه، وذلك ضمن نقاط.

أولاً: إطلالة على أنصار الحسين عليه السلام: من هم الأنصار؟ وكيف تشكَّلت هذه الجماعة؟

يجد الباحث المتأمّل في جماعة أنصار الإمام الحسين عليه السلام أنّها لم تتكوَّن من مدينةٍ خاصّةٍ حتى يُدرس دافعها للثورة على ضوء ظروف تلك المدينة، ولا من جيلٍ خاصٍّ؛ كالصحابة أو خصوص التّابعين، كي يكون لقيامهم دوافع ترتبط بالسَّبْق إلى الإسلام أو المكانة المرموقة، كما لم تتكوَّن من قبيلةٍ خاصّةٍ حتّى نبحث عن جذور هذه القبيلة، وعوامل نُصرتها للحسين بن علي عليه السلام...

فهذه الجماعة خليطٌ إنسانيّ؛ بما تحمله هذه المفردة من منحى إيجابيّ، تكوّن بفعل دوافع كامنة في أفراده، سيَّرتهم ذاتيّاً نحو الإمام الحسين عليه السلام، فكيف تشكَّل هذا الخليط[1]؟!

1. القبائل التي تشكَّل منها أنصار الحسين عليه السلام هي: بنو أسد، بنو همدان، بنو مذحج، بنو بجلة والخثعميّون، بنو كندة، بنو كلب، الأزديّون، العبديّون، التميميّون، الطّائيّون، التّغلبيّون، والجهنيّون.
2. كان مع الإمام الحسين عليه السلام جماعةٌ من الأنصار (أنصار النبي صلى الله عليه وآله)

(1) اعتمدتُ في التّصنيف الآتي على مصدرين؛ هما:
- السماويّ، محمد: إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام، تحقيق: محمّد جعفر الطَّبسي، ط1، مركز الدراسات التابع لممثليّة الولي الفقيه في الحرس الثّوري، 1419هـ.ق.
- شمس الدين، محمد مهدي: أنصار الحسين عليه السلام -الرِّجال، والدلالات- ط2، بيروت، الدار الإسلاميّة، 1981م.

عددهم سبعة؛ هم: عمرو بن قرظة الأنصاريّ، عبد الرحمن بن عبد ربّ الأنصاريّ الخزرجيّ، نعيم بن العجلان الأنصاريّ الخزرجيّ، جنادة بن كعب الأنصاريّ الخزرجي وابنه سعد، سعد بن الحارث الأنصاريّ، وأبو الحتوف بن الحارث الأنصاريّ.

3. كان من جملة أنصار الإمام الحسين عليه السلام جماعة من الموالي؛ هم: جون مولى أبي ذر الغفاريّ، زاهر مولى عمرو بن الحمق الخزاعيّ، سالم مولى بني المدنيَّة الكلبيّ، سالم مولى عامر العبديّ، سعد بن عبد الله مولى عمرو بن خالد الأزديّ، وشوذب مولى شاكر بن عبد الله الهمدانيّ الشّاكريّ.

وقد ذَكر بعضُ الباحثين في مسألة الأنصار من الموالي تحليلاً يرجع إلى أنَّ ظاهرة وجود الموالي في الثورة الحسينيّة لا تتوقَّف عند مشاركة العدد المحدود منهم في معركة كربلاء، والفوز بالشّهادة؛ بل تتعدّى هذا القدر المُحدَّد إلى مجالاتٍ أوسع منه بكثير، فثمَّة بعض الإشارات، قبل عاشوراء وبعدها، تدلُّ على وجود صلة ما -لعلَّها كبيرةٌ جدّاً- بين الموالي والثورة الحسينيّة، وربّما كان لها دلالاتٌ عظيمةُ القيمة على بدايات دور الموالي الخطير والكبير في توجيه حركة التاريخ في العالم الإسلاميّ؛ ومن هذه الإشارات: أنَّ عُبَيْد الله بن زياد، حين أراد أنْ يتقصَّى أخبار مُسلم بن عقيل، لم يستخدم لهذه المهمّة عربيّاً؛ وإنّما «دعا مولى له، يقال له معقل، فأعطاه ثلاثة آلاف، وقال له: اذهب حتّى تسأل عن الرجل الذي يبايع له أهل الكوفة، فأعلمه أنّك رجلٌ من أهل حمص...»[1]. ومن هذه الإشارات أنّ السيِّدة الأرملة التي لجأ مُسلم بن عقيل إلى منزلها بعد أنْ خذله الناس وتفرَّقوا عنه -وهي السيِّدة طوعة- كانت مولاة لمحمّد بن الأشعث. وقد أدخلت مُسلم بن عقيل إلى منزلها بمجرَّد أنْ عرفت اسمه، من دون أن

(1) الطبري، محمّد بن جرير: تاريخ الأُمم والملوك، مراجعة وتصحيح وضبط: نخبة من العلماء الأجلّاء، بيروت، نشر مؤسّسة الأعلمي، ج4، ص258.

تُبدي أيَّ حذر ممّا قد تجرُّ عليها استضافته عندها من متاعب، وقد أخفَتْه وهي تعلم أنّه مطلوب من قِبَل السّلطة[1].

ثانياً: أنحاء الخطاب السياسيّ لأنصار الإمام الحسين عليه السلام:

الخطاب السياسيّ هو عبارةٌ عن سلسلة منتظمة من الأفكار الحاصلة عبر تراكم معرفيّ؛ بحيث تشكِّل رؤية معرفيَّة تحكي الأبعاد الفكريَّة لصاحب الخطاب ومُطلِقه، ويسعى إلى إيجازها في كلمات محدّدة، وتكون اللغة أداة طيّعة لتعكس تلك الأفكار.

ويهدف الخطاب السياسيّ إلى إقناع الآخر المُخاطب بالرؤية المتبنّاة لدى الخطيب؛ لكي يبدّل موقفه؛ إنْ كان متردّداً، أو ليصبح نصيراً وموافقاً؛ إنْ كان معارضاً، أو ليحيد عن الوقوف في مواجهة مشروع صاحب الخطاب؛ إنْ كان حياديّاً.

ولكنّ هذا الهدف لا يمنع من أنْ يكون الخطاب السياسيّ في بعض الأحيان بعيداً عن هدفيّة الإقناع، حيث لا تتوافر الظروف لذلك، ويكون متّجهاً إلى الإعلان عن الموقف، وإلقاء الحجّة على الناس، وتسجيل موقف تاريخيّ. كما لا يشترط في عناصر الخطاب السياسيّ أن تتكوّن من عناصر عقلانيّة فقط، بل تشتمل على عناصر متعدّدة؛ فتشمل العناصر العاطفيّة، والانفعاليّة، والوجدانيّة، والتاريخيّة، وغيرها.

إنّ دراسة خطاب سياسيّ لحدث يعود تاريخيّاً إلى حقبة متقدّمة في التاريخ الإسلاميّ تفرض أنْ تكون المادّة التاريخيّة هي الحاكمة في هذا المجال، فنحن أمام مجموعة من الكلمات التي احتوتها المصادر التاريخيّة لأنصار الإمام الحسين عليه السلام. وبتتبّع الطريقة المعتمدة في الخطاب آنذاك، يمكن أنْ نلحظ ثلاثة أنحاء شكّلت خطاباتهم؛ وهي:

(1) انظر: شمس الدين، أنصار الحسين عليه السلام، م.س، ص191.

1. الخطب والرسائل:

تُشكّل الخطب والرسائل الصادرة عن الأنصار، والتي سبقت الثورة أو حصلَت في أثنائها، مادةً مهمّةً لتحديد معالم الفكر السياسيّ لهم. وهذه الخطب المنقولة في مصادر التاريخ والسيرة الحسينيّة، على الرغم من كونها محدودة وقصيرة لا تتجاوز الأسطر، تمتاز بغنى المضمون؛ حيث جمَعت الإطار العامّ للدوافع والمباني والمعالم الفكريّة لأنصار الحسين عليه السلام. وكانت هذه الخطب تخضع للظروف المحيطة بأحداث الثورة الحسينيّة، والمسير الذي سلكته هذه الثورة بهذه الجماعة الصالحة إلى كربلاء.

أ ـ خطاب الأنصار لجماعة ابن سعد، قبل القتال، وأنموذج ذلك: خطبة زهير بن القين التي ألقاها قبل بدء القتال، فقد ذكر الطّبري عن كثير بن عبد الله الشّعبي، قال: «لمّا زحفنا قبل الحسين خرج إلينا زهير بن القين على فرسٍ له ذنوب شاك في السلاح فقال...»[1].

ب ـ كُتب الأنصار إلى الإمام الحسين عليه السلام، فقد ذكر الطّبري أنّ حبيب بن مظاهر كان من جملة الذين كتبوا إلى الحسين عليه السلام، لمّا امتنع من بيعة يزيد وخرج إلى مكّة. وكانت صورة الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن عليّ. من سليمان بن صرد، والمسيب بن نجبة، ورفاعة بن شداد، وحبيب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة...»[2].

2. الحوارات السياسيّة:

تتحدّث كافّة المصادر التاريخيّة التي دوَّنت حادثة كربلاء وما جرى فيها من أحداث عن تعدُّدٍ في الحوار السياسيّ بين أنصار الحسين عليه السلام جماعة عمر بن سعد، وتشكّل هذه الحوارات مادّةً مهمّةً لاستطلاع الفكر

(1) الطبري، تاريخ الأُمم والملوك، م.س، ج4، ص323.
(2) م.ن، ص261.

السياسيّ للفريقين؛ لأنَّ الحوار دار منذ أنْ التقى الفريقان وإلى اللحظات الحاسمة ونهاية القتال.

وقد عكس الأنصار في مفردات هذا الحوار السياسيّ الموقف الذي جعلهم أصحاب عقيدةٍ راسخة، ومعالم فكرهم السياسيّ التي جعلتهم يقفون هذا الموقف الصلب مع الحسين عليه السلام، ولاسيّما ذلك النوع من الحوار الذي كان يتمُّ عن معرفةٍ سابقةٍ بين المتحاورين، وعن إحاطةٍ بنمط التفكير السياسيّ الذي كان عليه الطرف الآخر.

وأنموذج ذلك: الحوار الذي دار عندما «خرج يزيد بن معقل، فقال: يا برير بن حضير! كيف ترى الله صنع بك؟! قال: صنع الله -والله- بي خيراً، وصنع الله بك شرّاً. قال: كذبتَ وقبل اليوم ما كنت كذّاباً! هل تذكر -وأنا أماشيك في بني لوذان- وأنت تقول: إنَّ عثمان بن عفان كان على نفسه مُسرفاً، وإنّ معاوية بن أبي سفيان ضالٌّ مُضلّ، وإنّ إمام الهدى والحقّ عليّ بن أبي طالب؟! فقال له برير: أشهد أنّ هذا رأيي وقولي. فقال له يزيد بن معقل: فإنّي أشهد أنّك من الضّالّين. فقال له برير بن حضير: هل لك فلأباهلك، ولندْعُ الله أنْ يلعن الكاذب، وأنْ يقتل المُبطِل، ثمَّ أخرج فلأبارزك؟ قال: فخرجا فرفعا أيديهما إلى الله يدعوانه: أنْ يلعن الكاذب، وأن يقتُل المُحقُّ المُبطل، ثمَّ برز كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه، فاختلفا ضربتين، فضرب يزيد بن معقل برير بن حضير ضربةً خفيفة لم تضرُّه شيئاً، وضربه برير ضربةً قدَّت المغفر وبلغت الدماغ»[1].

3. الأراجيز:

«الرَّجَز: بحر من بحور الشِّعْر معروف، ونوعٌ من أَنواعه يكون كلّ مِصْراع منه مفرداً، وتسمّى قصائده أَراجِيزَ، واحدتها أُرْجُوزَةٌ، وهي كهيئة السَّجْع، إِلا أَنّه في وزن الشِّعْر، ويسمّى قائله راجزاً، كما يسمّى قائل بحور

(1) الأزدي، لوط بن يحيى (أبو مخنف): وقعة الطفّ (مقتل الحسين عليه السلام)، تحقيق: محمّد هادي اليوسفي الغروي، ط2، نشر المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، 1427هـ.ق، ص253.

الشِّعْر شاعراً»[1].

والأرجوزة في الحرب تستخدم لتعريف المقاتل بنفسه، ولكنّها في كثيرٍ من الموارد -ولاسيّما في الأراجيز التي نادى بها أصحاب الحسين عليه السلام- كانت تتعدَّى التعريف بالشّخص لتأخذ طابع التعريف بالنهضة الحسينيّة، وشرح أهدافها[2].

وهذه الطريقة مهمّةٌ جدّاً لحفظ الثورة الحسينيّة؛ كما إنّها تُشكّل مادّةً مهمّةً لدراسة معالم الخطاب السياسيّ لأنصار الحسين عليه السلام.

رابعاً: معالم الخطاب السياسيّ لأنصار الإمام الحسين عليه السلام:

عندما ندرس معالم الخطاب السياسيّ لأنصار الحسين عليه السلام؛ فإنّنا ندرس بذلك معالم الخطاب الحسينيّ، ومعالم خطاب الثورة الحسينيّة. وهذا الخطاب يُشكِّل مدرسةً يَقتدي بها أتباع مدرسة الإمام عليه السلام؛ وذلك لأنَّ جمهور الأنصار كان يُمثِّل النُخْبَة، فيجب أنْ نُلاحظ أنَّ كثيراً من الثائرين لا يُمثِّلون -عدديّاً- أشخاصهم، أو أُسرهم؛ وإنّما يُمثِّلون -في ما وراء ذلك- جماعاتٍ كبرى من القبائل. ولأنَّ الثُوَّار يُمثِّلون النُخْبَة، فقد كانوا قادرين على السيطرة على الموقف، لو قُدِّرَ للثورة أنْ تنتصر عسكريّاً، ويتمكَّن أصحابها من الاستيلاء على الحكم، وكانوا قادرين -إذا لم يُتَح لهم النصر؛ كما حدث في الواقع- على أنْ يُفجِّروا طوفاناً من الغضب ضدّ الحُكم المنحرف في قلوب جماهيرَ غفيرةٍ من الناس، وأنْ يضعوهم على طريق الوعي الحقيقيّ، وأنْ يجعلوا منهم جمهوراً يُغذّي الثّورات باستمرار، وهذا ما حدث في الواقع[3].

(1) ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، قم المقدّسة، نشر أدب الحوزة، 1405هـ.ق/ 1363هـ.ش، ج5، ص350-351.

(2) انظر: المطهَّري، مرتضى: الملحمة الحسينيَّة، ط3، قم المقدّسة، المركز العالميّ للدراسات الإسلاميّة؛ مطبعة إسماعيليان، 1413هـ.ق/ 1992م، ج2، ص188.

(3) انظر: شمس الدين، أنصار الحسين عليه السلام، م.س، ص201.

وهناك عنصرٌ مهمٌّ لا بدَّ من التوقُّف عنده في ظاهرة الأنصار، وهو أنَّ الإمام الحسين عليه السلام لم يعمد إلى أخذ البيعة من أحدٍ طيلة مسيره من المدينة، إلى مكّة، ثمَّ منها إلى الكوفة، فمن سار مع الحسين عليه السلام سار لمجرّد دعوةٍ من الحسين عليه السلام وشرحٍ للواقع الدينيّ والسياسيّ والاجتماعيّ القائم؛ بما يستدعي التحرُّك لمواجهته.

وانطلاقاً من المادّة التي تقدَّمت، نستطيع من خلال التتبُّع أن نَسْتحضِر معالم الخطاب السياسيّ لأنصار الإمام الحسين عليه السلام، ونُوضحها ضمن الآتي:

1. الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر:

شكَّلت هذه الفريضة الإلهيّة المنطلق الأوّل لثورة الإمام الحسين عليه السلام؛ كما صرَّح الإمام عليه السلام نفسه بذلك، فقد كان هذا الدافع هو ما عاشه أصحاب الحسين عليه السلام وظهر في خطابهم السياسيّ؛ ابتداءً من حوار مُسلم بن عقيل سفير الإمام الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة، بعد أنْ ألقى ابن زياد القبض عليه، فقال له ابن زياد: «... أريد أن تخبرني يا ابن عقيل بماذا أتيت إلى هذا البلد؟ شتّتَ أمرهم، وفرّقت كلمتهم، ورميت بعضهم على بعض! فقال مسلم بن عقيل: لست لذلك أتيت هذا البلد، ولكنّكم أظهرتم المنكر، ودفنتم المعروف، وتأمّرتم على الناس من غير رضى، وحملتموهم على غير ما أمركم الله به، وعملتم فيهم بأعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر فيهم بالمعروف، وننهاهم عن المنكر، وندعوهم إلى حكم الكتاب والسنّة»[1].

لقد كانت سيرة الحاكمين تقوم على نشر المنكر في المجتمع الإسلاميّ، والتّجاهر ببعض المحرَّمات، وهي ظاهرةٌ لا يمكن للمؤمن الرِّضا بها أو السكوت عنها.

(1) الكوفي، أحمد بن أعثم: الفتوح، تحقيق: علي شيري، ط1، بيروت، دار الأضواء 1411هـ.ق، ج5، ص57-58.

وتحديد هذا الهدف، لما كان راجعاً إلى الإمام المعصوم عليه السلام، فبذل النفوس في سبيله يكون واجباً، ولاسيّما متى كانت ظاهرة المنكر حاكمة في المجتمع، متجاوزةً السلوك الفردي والتأثير الضيّق.

2. الإمامة الحقّة:

مسألة الإمامة هي أساس قيام الإمام الحسين عليه السلام؛ فقد أعلن عليه السلام صراحة أنّه الأحقُّ بالأمر، وشيعته وأنصاره كلّهم كانوا على ذلك، وبذلك نطقت حناجرهم في مختلف المواطن. ومن ذلك قول نافع بن هلال مخاطباً الإمام الحسين عليه السلام: «يا ابن رسول الله، أنت تعلم أنَّ جدَّك رسول الله صلى الله عليه وآله لم يقدر أنْ يُشرِب الناس محبّته، ولا أنْ يرجعوا إلى أمره ما أحبّ، وقد كان منهم منافقون يعِدونه بالنصر، ويُضمرون له الغدر، يَلقونه بأحلى من العسل، ويخلفونه بأمرّ من الحنظل حتّى قبضه الله إليه، وأنَّ أباك عليّاً قد كان في مثل ذلك، فقومٌ قد أجمعوا على نصره، وقاتلوا معه النّاكثين والقاسطين والمارقين، وقومٌ خالفوه حتّى أتاه أجلُه ومضى إلى رحمة الله ورضوانه، وأنت اليوم عندنا في مثل تلك الحالة، فمن نكَث عهده وخلع نيّته، فلن يضرَّ إلّا نفسه، والله مغنٍ عنه، فسِر بنا راشداً معافى، مُشرِّقاً إنْ شئت، وإنْ شئت مُغرِّباً، فوالله ما أشفقنا من قدر الله، ولا كرهنا لقاء ربّنا، فإنَّا على نيَّاتنا وبصائرنا، نوالي من والاك ونعادي من عاداك»[1].

فيستحضر شهيد الثورة الحسينيّة هذا مفهوم الإمامة، والامتداد الطُّولي له على مرِّ التاريخ، والمعاناة التي عاناها النبيُّ الأكرم صلى الله عليه وآله من أصحابه، وكذلك الإمام عليّ عليه السلام.

لقد كان المنطلق الواضح لأنصار الحسين عليه السلام هو الإيمان بأنَّ الإمام المعصوم عليه السلام هو صاحب منصب الإمامة الحقّة. وفي ذلك خاطب يزيد بن مسعود النَّهشلي قومه بني تميم، وبني حنظلة، وبني سعد؛ لمّا حضروا،

(1) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، تحقيق: محمد الباقر البهبودي، ط2، بيروت، مؤسّسة الوفاء، 1403هـ.ق/ 1983م، ج44، ص382-383.

قال: «يا بني تميم! كيف ترون موضعي فيكم وحسبي منكم؟! فقالوا: بخ بخ أنت -والله- فقرة الظَّهر، ورأس الفخر، حللتَ في الشَّرف وسطاً، وتقدَّمتَ فيه فرطاً. قال: فإنّي قد جمعتكم لأمرٍ أُريد أنْ أشاوركم فيه، وأستعين بكم عليه، فقالوا: إنَّا -والله- نمنحك النّصيحة [و] نجهد لك الرأي، فقل حتّى نسمع! فقال: إنّ معاوية مات! فأهون به -والله- هالكاً ومفقوداً، ألا وإنّه قد انكسر باب الجور والإثم، وتضعضعت أركان الظُّلم، وقد كان أحدث بيعةً عقد بها أمراً ظنَّ أنّه قد أحكمه، وهيهات الذي أراد، اجتهد -والله- ففشل، وشاور فخذل، وقد قام ابنه يزيد شارب الخمور، ورأس الفجور، يدَّعي الخلافة على المسلمين، ويتأمَّر عليهم بغير رضى منهم، مع قصر حِلْم، وقلَّة علم، لا يعرف من الحقّ موطئ قدميه، فأُقسم بالله قسماً مبروراً لجهاده على الدِّين أفضل من جهاد المشركين. وهذا الحسين بن علي ابن بنت رسول الله ﷺ، ذو الشرف الأصيل، والرأي الأثيل، له فضلٌ لا يوصف، وعلمٌ لا ينزف، وهو أولى بهذا الأمر لسابقته، وسنّه، وقدمه، وقرابته، يعطف على الصغير، ويحنو على الكبير، فأكرِم به راعي رعيَّة، وإمام قوم، وجبت لله به الحجّة، وبلغت به الموعظة، فلا تعشوا عن نور الحقّ...»[1].

3. حفظ ذريَّة النبيّ ﷺ:

حازت ذريَّة النبيّ ﷺ مكانةً في قلوب المسلمين، وقد خطَّط أعداء آل محمد ﷺ لإطفاء هذه المكانة، واجتثاثها من نفوس الناس، وهذه المكانة كانت حاضرةً في الخطاب السياسيّ لأنصار الحسين عليه السلام في دعوتهم الآخرين، وتذكيرهم بها، كما إنّها كانت حاضرة في نفوسهم؛ فهذا زهير بن القين يخاطب القوم، عندما اصطفَّ المُعسكران، وزحف القوم على الإمام الحسين عليه السلام: «إنّ الله قد ابتلانا وإيّاكم بذريّة نبيِّه محمّد ﷺ؛ لينظُر ما نحن وأنتم عاملون! إنَّا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد...»[2].

(1) ابن طاووس، علي بن موسى: اللّهوف في قتلى الطُّفوف، ط1، قم المقدّسة، نشر أنوار الهدى، 1417هـ.ق، ص26.

(2) الطبري، تاريخ الأُمم والملوك، م.س، ج4، ص324.

ومن ذلك كلام حبيب بن ظاهر، فقد ذكر أبو مخنف أنَّ حبيباً قال لزهير: «كلِّم القوم إنْ شئتَ، وإنْ شئتَ كلَّمتهم أنا. فقال زهير: أنت بدأت فكلِّمهم، فقال لهم حبيب: أما والله! لبئس القوم عند الله غداً قومٌ يقدمون على الله قد قتلوا ذريَّة نبيِّه وعترته وأهل بيته»[1].

فحفظ ذريّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم واجبٌ وتكليفٌ على عامّة المسلمين عليهم القيام به.

وبهذا أيضاً ارتجز زهير بن القين؛ عندما برز للقتال:

«أَنَـا زُهَـيْـرٌ وَأَنَـا ابـنُ القَيْنِ أَذُودُكُـمْ بِالسَّيْفِ عَنْ حُسَيْنِ
إِنَّ حُسَيْناً أَحَـدُ السِّبْطَيْنِ مِـنْ عِـتْـرَةِ البرِّ التَّقيِّ الزّيْنِ
ذَاكَ رَسُـولُ اللهِ غَيْرُ المَيْنِ أَضْرِبُكُمْ وَلا أَرَى مِنْ شَيْنِ»[3]

لقد كانت خصوصيَّة الحسين عليه السلام في كونه من ذريَّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم دافعاً مهمّاً لالتحاق زهير بن القين به؛ وذلك لأنّ المؤرّخين ذكروا في ترجمة زهير بن القين أنّه كان عُثمانيَّ الهوى، ولكنّه انتقل إلى أنْ أصبح من أنصار الحسين عليه السلام بعد أنْ التقاه في الطريق. ويُحدِّثنا أبو مخنف عن حوارٍ جرى بين زهير بن القين وأحد جُند ابن سعد، وهو عُزرة بن قيس الذي قال مخاطباً زهير: «إنَّك لتزكِّي نفسك ما استطعت! فقال له زهير: يا عُزرة إنَّ الله قد زكّاها وهداها، فاتّقِ الله -يا عُزرة- فإنّي لك من النَّاصحين، أنشدك الله -يا عُزرة- أنْ تكون ممّن يعين الضُّلال على قتل النُّفوس الزكيَّة. فقال عُزرة: يا زهير! ما كنت عندنا من شيعة هذا البيت؛ إنَّما كنت عُثمانيّاً! قال: أفلستَ تستدلّ بموقفي هذا على أنّي منهم؟! أما والله ما كتبتُ إليه كتاباً قط، ولا أرسلتُ إليه رسولاً قط، ولا وعدته نُصرتي قط، ولكنَّ الطريق جمع بيني وبينه، فلمّا رأيته ذكرتُ به رسول الله ومكانه منه، وعرفت ما يَقدِم عليه من عدوّه وحزبكم، فرأيت

(1) أبو مخنف، وقعة الطّف، م.س، ص224.
(2) الكوفي، الفتوح، م.س، ج5، ص109.

أن أنصره، وأن أكون في حزبه، وأن أجعل نفسي دون نفسه؛ حفظاً لما ضيَّعتم من حقِّ الله، وحقِّ رسوله»[1].

4. أداء حقّ الإمامة:

لقد كان أنصار الحسين عليه السلام ممّن تربّوا على العقيدة الصحيحة في نظرتهم إلى الإمامة؛ ويشهد لذلك تقديم أرواحهم -وهي أغلى ما يملكونه- دفاعاً عن الإمام عليه السلام، وهذا يُوضّح مدى امتلاكهم لوعي عقديّ متأصّلٍ في نفوسهم؛ كما تجلّى ذلك تصريحاً في كلماتهم وخطابهم السياسيّ، فقد روى الطبريّ أنَّ الإمام الحسين عليه السلام قال مخاطباً أصحابه: «**هذا اللَّيل قد غشيكم فاتّخذوه جملاً، ثمَّ ليأخذ كلُّ رجلٍ منكم بيد رجلٍ من أهل بيتي، ثُمَّ تفرَّقوا في سوادكم ومدائنكم حتّى يفرّج الله، فإنَّ القوم إنَّما يطلبوني، ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري. فقام إليه مُسلم بن عوسجة الأسدي، فقال: أنحن نخلّي عنك، ولمّا نعذر إلى الله في أداء حقّك، أما والله حتّى أكسر في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولا أفارقك، ولو لم يكنْ معي سلاحٌ أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك**». قال: وقال سعد بن عبد الله الحنفي: والله لا نخلّيك حتّى يعلم أنّا قد حفظنا غيبة رسول الله صلى الله عليه وآله فيك، والله لو علمت أنّي أُقتل، ثمّ أُحيا، ثم أُحرق حيّاً، ثمّ أُذرّ، يُفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك؛ حتّى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك؛ وإنّما هي قتْلةٌ واحدة، ثُمَّ هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً! قال: وقال زهير بن القين: والله لوددت أنّي قُتلت، ثمّ نُشرت، ثمَّ قُتلت حتّى أُقتل كذا ألف قتلة؛ وأنّ الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك. قال: وتكلّم جماعةُ أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد، فقالوا: والله لا نفارقك، ولكنّ

(1) أبو مخنف، وقعة الطّف، م.س، ص324.

أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قتلنا كنّا وفينا وقضينا ما علينا»[1].

إنّ المتأمّل في هذه الكلمات يجدها تتضمّن بوضوح فكرة ثبوت تكليفٍ على عاتقهم، يقضي بأنَّ للإمام عليه السلام عليهم حقّاً، وأنّهم في كلِّ ما يقومون به من قتال القوم؛ إنّما هو من باب أداء هذا الحقّ.

5. مواجهة الضَّيم والظُّلم:

تضمَّن الخطاب السياسي للأنصار الحديث عن أهمِّ القضايا الإنسانيَّة، وهي دفع الظُّلم والجور. فقد اجتمع مع نظرة الأصحاب إلى الإمام عليه السلام، المُنطلقة من عقيدةٍ راسخةٍ، النظرُ إلى مظلوميَّته، بوصفها قضيَّةً تتجاوز مسألة العقيدة إلى أنْ تكونَ من المبادئ الإنسانيَّة لكلِّ من يتحلَّى بصفات الإنسان الحُرّ؛ وقد ذكر المؤرّخون أنّ عابس بن أبي شبيب قال: «يا أبا عبد الله! أما والله ما أمسى على ظهر الأرض قريبٌ ولا بعيدٌ أعزّ عليّ ولا أحبّ إليَّ منك، ولو قدرت على أنْ أدفع عنك الضَّيْم والقتل بشيءٍ أعزّ عليَّ من نفسي ودمي لفعلته. السَّلام عليك يا أبا عبد الله! أُشهد الله أنِّي على هديك وهدي أبيك»، ثم مشى بالسَّيف مصلّتاً نحوهم[2].

6. الوفاء بالعهود والمواثيق:

انطلقت الكتب إلى الإمام الحسين عليه السلام من أهل الكوفة تبايعه على النُّصرة والإمامة، وتتعهَّد بالعمل معه على مقارعة الظُّلم والثَّورة بوجه الظَّالمين، إلاّ أنَّ الخيانة برزت بأفجع مظهرٍ تاريخيٍّ لها؛ فقد خان القوم الحسين عليه السلام، ولم يقتصر الأمر ببعضهم على عدم نصرته حتّى انقلب ليقف -وبكلِّ صلافةٍ وجرأة- في معسكر القتال المواجه له.

لقد بيَّن الإمام الحسين عليه السلام ذلك عندما خاطب القوم مذكِّراً إيّاهم

(1) الطبري، تاريخ الأُمم والملوك، م.س، ج4، ص317-318.

(2) انظر: م.ن، ص338.

بكتبهم، فقال: «أيها الناس! إنّها معذرةٌ إلى الله -عزَّ وجلَّ- وإليكم، إنّي لم آتكم حتى أتتني كتبكم، وقدمت عليَّ رسُلُكم أن أقدِم علينا، فإنّه ليس لنا إمامٌ لعلَّ الله يجمعنا بك على الهدى...»[1].

وكلام الإمام عليه السلام هذا أثَّر في نفوس القوم، وكان مِمَّن تأثَّر بذلك: الحرُّ بن يزيد الرِّياحي الذي انطلق -وقد كان من رؤوس القوم- ليلتحق بالإمام عليه السلام، ويبذل مُهجته في نُصرته. ويُوضح الحرّ دافعه إلى الانقلاب بقوله مخاطباً أهل الكوفة ممَّن كان في المعسكر المقابل: «يا أهل الكوفة لأُمكم الهَبلُ والعُبْرُ؛ إذ دعوتموه حتّى إذا أتاكم أسلمتموه! وزعمتم أنّكم قاتلو أنفسكم دونه، ثُمَّ عدوتم عليه لتقتلوه! أمسكتم بنفسه وأخذتم بكَظْمه، وأحطتم به من كلِّ جانب، فمنعتموه التَّوجُّه في بلاد الله العريضة حتّى يأمن ويأمن أهلُ بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ولا يدفع ضرّاً، وخلأتموه ونساءه وأهل بيته وأصحابه عن ماء الفرات الجاري»[2].

7. اتِّباع الحُجَّة والدَّليل:

تضمَّن الخطاب السياسيّ لأنصار الحسين عليه السلام تقريع القوم بأنَّ الأنصار هم أتباع الحُجَّة والدَّليل، وقد تجلّى ذلك في الأراجيز التي أطلقها الأصحاب مُعلِنين فيها إيمانهم بقوَّة حجَّتهم، فخاطب حبيب القوم عند مبارزته لهم بقوله:

«أَنَـا حَبِيبٌ وَأَبِـي مُظَاهِر ... فَـارِسُ هَيْجاءَ وَحَـربٌ تُسْعَر
أَنْـتُـمْ أَعَـدُّ عُـدَّةً وَأَكْـثَـر ... وَنَـحْـنُ أَوْفَـى مِنْكُمْ وَأَصْبَـر
وَنَـحْـنُ أَعْـلَـى حُـجَّـةً وَأَظْـهَـر ... حَقّاً وَأَتْقَى مِنْكُمْ وَأَعْـذَر»[3]

(1) أبو مخنف، وقعة الطّف، م.س، ص197.
(2) م.ن، ص248.
(3) م.ن، ص264.

8. البُعد الأُخرويّ:

لا شكّ في أنَّ من يُقدم على تقديم نفسه وروحه في سبيل قضيَّةٍ من القضايا، لا بدَّ من أنْ يمتلك رؤيةً أُخرويَّةً سليمةً تجعله يرى في ما يُقدِم عليه إقداماً على عالم أرحب وأوسع، وهذا ما تجلَّى في أنصار الحسين عليه السلام؛ فقد كان مفهوم شفاعة النبيّ صلى الله عليه وآله في الآخرة حاضراً في خطاب الأنصار، فخاطب زهير بن القين القوم بقوله: «فوالله لا تَنال شفاعة محمّد صلى الله عليه وآله قوماً أراقوا دماء ذريَّته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبَّ عن حريمهم»[1].

9. الأُخوَّة في الدِّين ما لم يقع الدَّم:

من أهمّ المفاهيم التي كرَّسها النبيّ والأئمّة -صلوات الله عليهم أجمعين- مسألة الأُخوَّة في الدِّين، وهذا النَّمط في التّعامل يبقى إلى اللّحظات الأخيرة التي يمكن فيها الحفاظ على هذه الأُخوَّة. هذه الفكرة كانت مركوزةً في تعامل أنصار الحسين عليه السلام مع القوم الذين اصطفّوا لقتالهم، وقد برز إليهم زهير بن القين محاولاً تحريك عنصر وحدة الدِّين بينهم؛ ليدرأ بذلك انقطاع العصمة، وليحقن بذلك دمهم، قال: «يا أهل الكوفة! نِذراً لكم من عذاب الله نذار! إنّ حقاً على المسلم نصيحةُ أخيه المسلم، ونحن حتّى الآن إخوةٌ على دينٍ واحدٍ وملّةٍ واحدةٍ؛ ما لم يقع بيننا وبينكم السَّيف، وأنتم للنّصيحة منَّا أهل، فإذا وقع السَّيف انقطعت العصمة، وكُنَّا أمَّةً وأنتم أمَّة»[2].

10. الشِّعار السياسيّ في خطاب الأنصار:

يتكوَّن الشّعار السياسيّ من كلمةٍ أو عددٍ قليلٍ من الكلمات التي تحمل دلالاتٍ تاريخيَّة واجتماعيَّة واعتقاديَّة وفكريَّة تتجاوز الألفاظ والمعاني

(1) أبو مخنف، وقعة الطّف، م.س، ص245.
(2) م.ن، ص241.

اللغويَّة، لتحكي -باختصار- عن المفهوم الذي يحمله صاحب الشِّعار.

ويمكن رصد جملة من الشعارات الواردة في خطابات الأنصار وحواراتهم وأراجيزهم؛ أبرزها:

أ. دين عليّ عليه السلام:

من مفردات شعار أنصار الإمام الحسين عليه السلام شعار «دين عليّ»، وهو يُشير بوضوح إلى تلك الجماعة الأولى التي تكوَّنت من شيعة الإمام عليّ عليه السلام، والتي حاربها معاوية بن أبي سفيان، وتتبَّع أفرادها بالقتل والتَّنكيل؛ فقد كتب معاوية إلى زياد بن سلمة: «من كان على دين عليّ ورأيه فاقتله وامثل به»[1].

وعندما برز نافع بن هلال الجملي كان قد كتب اسمه على أفواق نبله، فجعل يرمي بها مسوّمةً وهو يقول: «أنا الجملي، أنا على دين عليّ»[2].

ب. شعار يوم الأحزاب:

شعار يوم الأحزاب هو شعار القوم الذين انطلقوا للقضاء على النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة في بدايات الرِّسالة الإسلاميّة، ونواتهم قريش التي ترأّسها رأس البيت الأمويّ أبو سفيان. وهنا يستحضر الأنصار هذه الواقعة؛ لأنَّها شعار ما تجدّد من محاربة البيت الأمويّ للبيت الهاشميّ. فقد روى المؤرّخون في وقائع كربلاء أنَّ حنظلة بن أسعد الشَّبامي[3] قام بين يدي الحسين عليه السلام فأخذ ينادي: «﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾»[4].

(1) الأميني، عبد الحسين: الغدير، ط4، بيروت، نشر دار الكتاب العربي، 1397هـ.ق، ج10، ص288.
(2) أبو مخنف، وقعة الطّف، م.س، ص267.
(3) الشبامي: شبام بطنٍ من همدان، من القحطانيّة.
(4) أبو مخنف، وقعة الطّف، م.س، ص270؛ والآيات من سورة غافر.

ج. شعار ولد فاطمة عليها السلام:

لفاطمة عليها السلام مكانة في قلوب المسلمين، هذه المكانة التي أكَّد عليها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في كلماته الشهيرة: «إنَّ الله تعالى يغضب لغضبك ويرضى لرضاكِ»[1]، ففاطمة عليها السلام ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنبيّ صلى الله عليه وآله. وعلى هذا الأساس، يتحدَّث ابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي عن مفهوم ولد فاطمة عليها السلام؛ قائلاً: «وممَّا يدلُّ على اختصاص ولد فاطمة دون بني هاشم كافّة بالنبيّ عليه السلام: أنّه ما كان يحلُّ له عليه السلام أنْ ينكح بنات الحسن والحُسين عليهما السلام، ولا بنات ذرّيّتهما وإنْ بَعُدْنَ وطال الزَّمان، ويحلُّ له نكاح بنات غيرهم من بني هاشم من الطَّالبيّين وغيرهم. وهذا يدلُّ على مزيد الأقربيَّة، وهي كونهم أولاده؛ لأنَّه ليس هناك من القربى غير هذا الوجه؛ لأنَّهم ليسوا أولاد أخيه، ولا أولاد أخته، ولا هناك وجه يقتضي حرمتهم عليه إلاّ كونه والداً لهم، وكونهم أولاداً له»[2].

وهذا الشِّعار تناوله أنصار الحُسين عليه السلام في تقريعهم للقوم، ففي خطاب زهير بن القين لجماعة ابن سعد يقول: «عباد الله! إنَّ ولد فاطمة -رضوان الله عليها- أحقّ بالودّ والنَّصر من ابن سميَّة، فإنْ لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم»[3].

(1) الحاكم النّيسابوري، أبو عبد الله: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار المعرفة، ج3، ص154.

(2) العلوي، محمد بن الحسين بن موسى (الشريف الرضي): نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحكمه)، شرح: ابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، 1961م، ج11، ص27.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، م.س، ج4، ص324.

خاتمة:

لقد شكّل أنصار الإمام الحسين عليه السلام، بما يحملون من فكر ومبادئ وقيم، نهجاً سياسيّاً عبَّر عن بصيرة ووعي لأهداف الثورة الحسينيّة، وتجلّى ذلك من خلال الآتي:

- الحضور المباشر في المعركة، وإطلاق شعارات سياسيّة كان لها بالغ الأثر الإيجابيّ في المعركة.
- الخطاب السياسيّ الذي قدّمه الأنصار قبل المعركة وأثناءها؛ ما يكشف عن مستوى الوعي السياسيّ لأهداف الثورة الحسينيّة.
- لم تكنْ منطلقات الأنصار وحضورهم في كربلاء منطلقاتٍ مناطقيّة أو قبليّة أو ...؛ بل بفعل دوافع إنسانيّة فطريّة كامنة في أنفسهم، جعلتهم يقدِّمون أنفسهم قرابين للثورة.
- لم يكن الأنصار من شريحة اجتماعيّة واحدة؛ بل هم خليط إنسانيّ يحوي جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وشخصيّات من كبرى القبائل العربيّة، وجماعة من الموالين.
- وجّه الأنصار رسائل وخطب مليئة بالمضامين الإسلاميّة الأصيلة، فألقوا الحجّة بها على جيش عمر بن سعد.
- لم تغب الأراجيز عن المعركة، حيث عبّر من خلالها الأنصار عن حسبهم ونسبهم وعزّتهم بالانتماء إلى الإمام الحسين عليه السلام سبط النبي صلى الله عليه وآله وسلم.
- كان للإمامة والولاية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتصريح بالانتماء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإلى الدين الإسلاميّ، ومواجهة الظلم والظالمين؛ حيّزاً واضحاً في كلمات الأنصار.

إنّ الدور الكبير لأنصار الإمام الحسين عليه السلام يستحقّ دراسات تحليليّة معمّقة تركّز على المبادئ والآثار والنتائج التي انعكست في قلب المعركة وبعدها إلى عصرنا الراهن، وكذلك في المستقبل.